جماليات التضاد في رسالة الخليفة عمر بن الخطاب
إلى قاضي البصرة أبي موسى الأشعري

د.سمر الديـــــــوب

أستاذ مساعد باختصاص الأدب
الإسلامي، جامعة البعث، كلية الآداب
والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية،
حمص، سورية

جماليات التضاد في رسالة الخليفة عمر بن الخطاب إلى قاضي البصرة أبي موسى الأشعري

مُلَخَّصُ البَحْثِ

يرتبط التضاد بالنزعة العقلية، وتنجم جماليته عن الجمع بين ضدين في بنية واحدة، فتتعمق البنية الفكرية في النص، وتتولد الدهشة الناجمة عن اجتماع الضدين في موقف واحد، أو جملة واحدة.

وينشد هذا البحث بيان مستويات التضاد في رسالة الخليفة عمر– رضي الله عنه – إلى قاضي البصرة أبي موسى الأشعري، فقد تجلى –على مستوى اللغة– في التضاد بين الجمل الفعلية والاسمية، والحركة والسكون، وتضاد دلالة الفعل الزمنية، ووظيفة ذلك في تأكيد هدف الخليفة من الرسالة.

وقد تم اختيار هذه الرسالة مادة للدراسة؛ لأنها تعدُّ منهجاً في القضاء، فقد خاطب الخليفة الإنسان في كل زمان ومكان، وأرادها رسالة وعظية تعليمية.

The Aesthetics of Opposition in Caliph Omar Ibn Al-Khattab's Epistle to Abu Mousa Al-Asha'ari , the judge of Al-Basra

Dr Samar Al-Dayyoub

Associate Professor in Islamic literature, in the department of Arabic, faculty of arts and Humanities, Al-Ba`ath University, Homs, Syria

Abstract

Opposition is related to mental inclination, and its aesthetics stem from combining two opposites in one construction witch deepens the thematic component of the text. Thrill then springs from the combination of two opposites in one situation or one sentence. This paper seeks to reveal the levels of opposition in the epistle of Caliph Omar Ibn Al-Khattab (May Allah be satisfied with his deeds) to Abu Mousa Al-Asha'ari, the judge of Al- Basra. Opposition on the level of language, featured in the from of the disparity between verbal and nominative sentences, motion and stasis, and that of the connotation of the verb's tense and their function to emphasize the caliph's aim in this epistle. This epistle has been selected as the subject of this study because it is regarded as a premise in judgment, because the caliph addressees man at all times and everywhere, and intends this epistle as a didactic tract.

فن الرسائل عند العرب:

عرف العرب في جاهليتهم الكتابة على نطاق محدود، وقد أشار القرآن الكريم في مواضع متعددة إلى معرفة العرب بها، يقول تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١) ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ ﴾ (٢)

ويختلف النقاد في نشأة كتابة الرسائل لدى العرب، هل هي جاهلية أو إسلامية، وهل كان الجاهلي يتبع أسلوب الكتابة المعروف في صدر الإسلام؟

لقد عُرِفَ كتّابٌ كانوا يكتبون الوحي للنبي – صلى الله عليه وسلم- ونواب ينوبون عنهم إذا غابوا. (٣)

وإذا كانت الكتابة معروفة في الجاهلية فهل هي كتابة فنية يُعتد بها في عالم الأدب والنقد؟

يرى د. طه حسين وغيره من النقاد أن الجاهليين لم يعرفوا النثر الفني في الكتابة، وإن عرفوا الكتابة الخطية التي مهدت له،(٤) وبعضهم الآخر يرى أن النثر الفني كان موجوداً منذ الجاهلية.(٥)

يروى أن قس بن ساعدة كان أول من كتب عبارة من فلان إلى فلان.(٦)

وإذا كانت الخطبة تتوجه من فرد إلى جماعة يلقيها علناً على مسامعهم، ويتلقونها منه مباشرة، فتعلق في أذهان مستمعيها بالمعنى - في الأغلب الأحيان- ؛ لصعوبة حفظ النثر، وسهولة حفظ الشعر؛ لانضباطه في أوزان وقواف فإن الرسالة تنقل من شخص لشخص من دون أن تنشر، أو يُعلن مضمونها. وإذا كان العرب قد برعوا في الخطابة فليس من المعقول أن يصعب عليهم أن يبرعوا في إنشاء الرسالة إنشاءً فنياً.

وقد شجع الإسلام على الاهتمام بالكتابة؛ لأنه أعلى من شأن الفكر والعقل، فشجع النبي- صلى الله عليه وسلم- على تعلم القراءة والكتابة، وجعل فداءَ الأسير الذي يعرف القراءة والكتابة في موقعة بدر تعليم عشرة من أبناء الصحابة القراءة والكتابة.(٧)

وتطور فن الرسائل في فترة النبوة، حتى إذا وصلنا إلى عهد الخلفاء الراشدين وجدنا للرسالة منهجاً واضحاً، وتميزاً في الأسلوب. يرى د. صلاح الدين الهادي(٨) أن الفن بعامة، والأدب بخاصة إنما يزدهر ويدرج بقوة في طريق النضج إذا كانت ظروف العصر والبيئة تتطلبانه، وتوفران دواعيه، فأثمر ذلك كله نوعاً من النثر يمكن أن يُعدّ جديداً في البيئة العربية، لم يكن معروفاً بها قبل الإسلام بشكل واضح هو الكتابة الفنية وعلى الأخص كتابة الرسائل.

لا نوافق د. الهادي في أن الكتابة الفنية بشكل عام، وكتابة الرسائل بشكل خاص قد عرفت في صدر الإسلام، ولم تعرف في الجاهلية. فالنثر الفني موجود منذ الجاهلية، وقد حفظت لنا كتب الأدب كثيراً من الخطب والقصص والحكم والأمثال ذات الطابع الفني الواضح.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- أخذت الرسالة مضامين جديدة، فقد أثرت الأحداث السريعة والمتلاحقة في مضمون الرسائل كالفتوحات وغيرها... إذ وجّه الخليفة عماله إلى البلاد المفتوحة، وكانت الرسائل طريقة التواصل بينه وبينهم، فتطورت موضوعات الرسائل، واتسعت مجالاتها تبعاً لتطور الحياة بنواحيها كافة.

نصّ الرسالة:

كتب عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- إلى أبي موسى الأشعري، رواها ابن عُيَيْنة[٩]:

(من عبد الله عمرَ بن الخطاب أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن قيس سلامُ عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمةٌ، وسنة متبعةٌ، فافهم إذا أدلى إليك الخصم، وأنفذ إذا تبيَّن لك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آسِ[١٠] بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك، البينة على مَنْ ادّعى، واليمين على مَنْ أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيتَه بالأمس ثم راجعتَ فيه نفسك، وهديتَ فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، والرجوع إليه خير من التمادي على الباطل. الفهمَ الفهمَ فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله وسنة نبيّه -صلى الله عليه وسلم-، واعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمِد أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحقّ، واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيِّنَة أخذت له بحقه، وإلا استحللتَ القضية عليه، فإن ذلك أجلى للعمى، وأبلغ في العذر، وأنفى للشك، والمسلمون عدول[١١] بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حدٍّ أو مجرَّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً[١٢] في ولاء أو قرابة أو نسب، فإن الله عز وجلّ ولّى فيكم السرائر، ودرأ عنكم بالبيِّنات والأيمان، ثم إياك والتأذي بالناس، والتنكُّر للخصوم في مواطن الحقوق التي يوجب الله عز وجل بها الأجرَ، ويحسن بها الذُّخر، فإنه من تخلُص نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله له ستره).

موضوع الرسالة ومنهجها:

تعدّ هذه الرسالة أساساً في القضاء ومنهجه الذي يقوم على المبادئ الإسلامية التي استمدت مادتها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتي أرسى قواعدها النبي –صلى الله عليه وسلم- والخفاء الراشدون بعده.

وقد عرف عن الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عدله، وتأتي هذه الرسالة تأكيداً لرغبة الخليفة في تحقيق القضاء العادل، وتمتع القاضي بأنزه الصفات؛ ليحقق العدل في جميع الأمصار الإسلامية.

تناولت هذه الرسالة المبادئ الكبرى المتعلقة بالقضاء الذي تعزز في عهد الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- وتحدثت عن إرشادات ونصائح، وأكدت بعض التشريعات، ووضعت الأصول التي يعتمد عليها الحاكم، وهي الكتاب والسنة، وطالبت بفتح باب الاجتهاد؛ لذلك تعدُّ الرسالة دستوراً في الحكم والقضاء فيما يتعلق بأمور المسلمين وغيرهم.

أما منهج هذه الرسالة فيتضمن المقدمة، وتشمل العنوان من حيث المرسِل والمرسَل إليه، والسلام، والدخول في المضمون بقوله: أما بعد، ثم يأتي المضمون بعد التخلص من المقدمة بالفاء الرابطة لجواب الشرط.

جماليات التضاد في الرسالة:

يتجلى التضاد في هذه الرسالة على مستوى اللغة، ومن المعروف عن الخليفة عمر – رضي الله عنه- فصاحته، فقد وصل إلى مرتبة عالية من البيان والفصاحة حتى قالوا: إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أي شدقيه شاء.(١٣)

ويكشف تحليل التضاد في الرسالة عن قدرة الخليفة عمر على إيصال ما أراد عن طريق لغة واضحة، بعيدة عن التصنع والتكلف.

وإذا ما تمعنا في الجمل التي استعملها المنشئ وجدنا الجمل تتوزع على مستويين:

مستوى أول	مستوى ثان
- القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة	- فافهم إن أدلى إليك...
- فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له	آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك...
- البينة على من ادّعى واليمن على مَن أنكر والصلح جائز...	ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، ثم راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه.
- فإن مراجعة الحق خير من التمادي على الباطل.	- الفهمَ الفهمَ .. اعرف الأمثال والأشباه .. قس الأمور ثم اعمد أحبها إلى الله... واجعل... فإن أحضر بينة...
- فإن ذلك أجلى للعمى، وأبلغ في العذر، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا.. فإن الله عز وجل ولّى منكم السرائر ودرأ عنكم...	- ثم إياك والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يوجب بها الله عز وجل الأجر.

- فإنه من تخلص نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس	- ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله له ستره

يتبين من قراءة الجدول السابق أن الخليفة قد وزّع كلامه بين جمل اسمية وفعلية، وتحيل الجمل الاسمية عادةً إلى السكون؛ لأن الاسم حدث مجرد من الزمن في حين تحيل الجملة الفعلية إلى الحركة، ومن ثم يحيل التوازي بين المستويين السابقين إلى علاقة ضدية بين الحركة والسكون أي بين المستويين.

وقد لجأ الخليفة إلى السكون المرتبط بالجمل الاسمية في المستوى الأول حين قرَّر قاعدة، ولجأ إلى الحركة في المستوى الثاني المرتبط بالجمل الفعلية حين علَّل وأمر، ونهى.. وبذلك تنطوي هذه الجمل على تجدد في الحركة، مرتبط بالزمن.

فثمة اختلاف في الحركة، والحركة في جمل المستوى الثاني مستقلة عن الحركة في جمل المستوى الأول.

وجمل المستوى الأول جمل اسمية خالصة أو مؤكدة، أو جمل اسمية احتوت على جمل فعلية. ويعني الثبات في الجمل الاسمية فيما يعنيه ثباتاً على تجدد الفعل، ففيها حركة من نوع مختلف.

الرسالة إذن بناء منظم ودقيق، تبدو كأنها (معمار هندسي ينهض على وفق نظام معين تتناوب بموجبه وحدات القولين...)[١٤]

الجمل الاسمية جمل إخبارية وهي جمل تتسم بصفة الرتابة والسرد والتشريع والقصر والتعليم. وتتألف من مسند ومسند إليه وأداة توكيد، وكأنه أتى بالمسند؛ ليوصل إلى المخبر عنه فقط.

أما الجمل الفعلية فهي جمل إنشائية تتسم بصفة الحركة والطول والتفسير والتعليل، وتدور حول فكرة جوهرية هي الفهم، والعمل على ما يتصل به. وقد فصَّل في هذا المستوى؛ لأنه الجانب العملي مقابل جانب التنظير، ولأنه أراد أن يؤكد أهمية الفكر والعقل. فقد علَّل الأحكام التي قدَّمها؛ لكي تأخذ مجرى التنفيذ، فحين قال (آس بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك) لم يكتف بالأمر بل أردف بالتعليل (حتى لا يطمع شريف في حيفك ولايخاف ضعيف من جورك). فقد أتى بالفكرة ثم أعقبها بالفائدة التي تنتج منها، وأوضحها.

كل جملة في هذه الرسالة ذات مدلول كبير، فقد قرر القاعدة التي يجب أن يسير عليها القاضي، ثم أعقبها بالتفسير والتعليل (فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إن أدلى إليك الخصم، وأنفذ إذا تبين لك، فإنه لاينفع تكلم بحق لا نفاذ له...)

تتوجه الأفعال في المستوى الثاني إلى فاعل محدد، أما المستوى الأول فلا يوجد فيه أفعال موجهة إلى فاعل، فثمة تقرير قاعدة فقط.

ولا نجد حضوراً للخليفة عمر –رضي الله عنه- بوصفه خليفة، ولا لشخصية أبي موسى الأشعري، بل نجد أن الرسالة مجموعة من الأوامر والنواهي الصالحة لكل زمان ومكان.

وقد حضر الخليفة من خلال أفعال الأمر، والنهي، والتعريف بالمشكلة، واقتراح الحلّ، فهو غائب مع أن صوته حاضر في الرسالة، وكذلك نجد أن الخطاب الموجه للأشعري القاضي الغائب في الرسالة هو خطاب موجه إلى كلّ قاضٍ في كل زمان ومكان، ومن هنا يتخذ النص صفة سرمدية.

تسير الرسالة بشكل عام في طريقين: السنة والاجتهاد، ويمثل المستوى الأول رؤية

الخليفة فيما يتعلق بواقع المسلمين الديني والقضائي، ويكشف عن أسس القضاء الإسلامي (البينة على منْ ادعى، واليمين على من أنكر)، ويوضح أهمية القضاء، ويركز على العدالة والنزاهة في التعامل مع الناس جميعاً، ويكشف عن وجود مشكلات في المجتمع الإسلامي. أما المستوى الثاني فيمثل رؤيا الخليفة فيما يتعلق بطموحه المرتبط بروح الدين وجوهره، فقد أراد نشر الحق والعدل والمساواة بين الناس جميعاً، وحلّ مشكلات المجتمع، كما أراد أن يقرر أحكاماً، ويوضح تفاصيل مرتبطة بالتشريع الإسلامي، وأن ينفذ القاضي الأشعري هذه الأوامر والنواهي.

وحين اقترح فكرة اجتهاد القاضي؛ ليرعى أمور المسلمين، ويسير بهم إلى الأمام مهتدياً بالكتاب والسنة لم يُلغ المستوى الأول، لقد حافظ عليه، وأراد أن يتوازى المستويان، ويتلازما. ونستطيع أن نقول: إن أهم فكرة في المستوى الثاني هي فكرة الاجتهاد مع أنها أخذت حيزاً ضئيلاً من الرسالة، كما أننا نرى أن الرسالة أخذت صفتين في الآن نفسه:

صفة الخطبة وصفة الرسالة، فلم تأخذ صفة الرسالة إلا في المستوى الثاني من خلال أفعال الأمر والمخاطبة والتعليل...، أما في المستوى الأول فقد أشبهت أسلوب الخطابة.

يتسم المستوى الأول في هذه الرسالة بالطابع الديني العقائدي، ويتسم المستوى الثاني بالطابع الإجرائي العملي.

ويعني وجود أفعال الأمر أن الحركة متجهة من آمر إلى مأمور، أي من أعلى إلى أدنى، فالحركة تسير في اتجاه واحد. ولم يوجه الخليفة هذه الأوامر والنواهي (آس، افهم، أنفذ...)؛ لأنه خليفة. بل أتى بأسلوب وعظي قائم على النصح والتنبيه؛ لأنه

يأمر عماله بتحقيق العدل. ويناسب فعلَ الأمر ضمير المخاطب، وهو فعل يحيل إلى وظيفة لغوية محددة وهي الوعظ.

أما من جهة زمن الأفعال فنجد أن ثمة أفعالاً ماضية، ومضارعة، لكن الماضي لا تقتصر دلالته الزمنية على الزمن الماضي فقط، فلا يُسحب الحدث إلى الماضي، وكذلك المضارع يخرج عن دلالته الزمنية؛ لأن هدف الخليفة تثبيت أركان العقيدة في كل زمان.

وبذلك نجد أن ثمة علاقة ضدية بين دلالة الزمن الماضي مثلاً الزمنية المعروفة و الدلالة التي يأخذها من خلال السياق (والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحلَّ حراماً أو حرَّم حلالاً) فالفعلان أحلَّ وحرَّم لا تنسحب دلالتهما إلى الماضي؛ لأن الخليفة يقرر قاعدة، فيسحب دلالة كلٍّ من الفعلين إلى الزمن المستقبلي أيضاً.

ولا يوجد الطباق بين الكلمة وضدها فقط ((أحلَّ وحرَّم) بل ثمة تقابل بين الصيغ الفعلية والاسمية على نحو أعم من المفردة، وهو ما يعرف بالخطاب.

فالجمل الفعلية تدخل في علاقة تضاد مع الجمل الاسمية، ويعني هذا الأمر وجود تضاد بين الحركة والسكون، فالتناوب بين الحركة والسكون على مستوى الخطاب يؤثر في المتلقي بشكل أكبر. ويؤثر التضاد في إيقاع الجملة في هذه الرسالة. فقد لجأ الخليفة إلى التناظر والمقابلة في قوله: (حتى لا يطمع شريف في حيفك ولايخاف ضعيف من جورك). إن ثمة توازياً بين الحركات في هاتين الجملتين يغني حركة الإيقاع. وقد حقق التناظر بين الجملتين فائدتين: معنوية وموسيقية. فقد تعرض الخليفة للناس من دون تمييز، فلكل الناس الحق في مقابلة القاضي؛ لينظر في قضاياهم. ويغني التلاقي بين المتضادات الإيقاع، ويحقق نوعاً من التناظر في الكلام، فحين نجمع بين الأمر ونقيضه نعمِّق الشعور به، ونخلخل رتابة الإيقاع، ونحدث فيه هزة.

لا يقتصر التضاد على التقابل بين المعاني. إنه طريقة في التفكير، ولون عقلي لا زخرفي. فهذه الرسالة فكرية أكثر منها أدبية، لو وضعت في زمانها سنجد أنها متقدمة مئات السنين. فهدفها وعظي تعليمي، وطغيان صوت الخليفة أنسانا أن ثمة مخاطباً له حضور في هذه الرسالة.

ومن أجمل ما يسم هذه الرسالة وجود الروح التفسيرية، والقدرة الواعية على متابعة المشكلة. فمهمة اللغة إقناعية، والتعليل هو الذي استوجب الإقناع.

خصائص النزعة العقلية في أسلوب الرسالة:

يرتبط التضاد بالنزعة العقلية ارتباطاً مباشراً. والأسلوب المتبع في إنشاء الرسالة أسلوب عقلي، فسمات أسلوب الخليفة هي صفاته الخلقية، لاحظَّ للخيال في هذا الأسلوب، والحظ الأوفى للعقل والمنطق، إنه يشرح، ويعلل، ويفسِّر، ولا يشبِّه ولا يستعير ولا يمثِّل؛ لذلك يتجه أسلوبه نحو الإقناع لا التأثير، ويخاطب العقل لا العاطفة.

ومن أهم ملامح هذا الأسلوب العقلي بروز النزعة التعليلية (الشرط، الأمر، النهي...). وقد ظهر الخليفة قيادياً مرشداً من خلال هذه الأفعال، وبدا شديد التوغل في موضوعه. فهو مفكر أكثر من كونه خليفة ناصحاً.

وينبئ بناء الرسالة عن منهجية واضحة من جهة البداية والعرض واختتام الموضوع. فقد وزع الكلام توزيعاً منطقياً، وذكر القاعدة، وأعقبها بالفائدة، وخلت المقدمة من ألفاظ التفخيم والتعظيم، واقتصرت على ذكر اسم المرسل والمرسَل إليه فقط، وتوجهت إلى الهدف من دون إطالة أو تكلف.

أما عرض الرسالة فقد قسمه إلى أفكار، وبنى قاعدة قضائية، ودعمها بتحليل وتعليل مستعيناً بمعرفته بالقرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة.

وأتى هذا العرض من خلال العبارة المحكمة التي أخذت مجرى المثل (البيِّنة على مَنْ ادّعى، واليمين على مَنْ أنكر)، (فإن مراجعة الحق خير من التمادي على الباطل..) فتجنب المبالغة والإطناب، وأسلوبه هذا أثبت للحجة.

كما ابتعدت الرسالة عن الصنعة الفنية، وأتى السجع عفو الخاطر، والسجع المستجاد هو الذي يأتي من دون تكلف. ولم يكن سجع الخليفة غاية، لقد كان وسيلة هدفها التأثير، فيضفي السجع أناقة لفظية على الجمل، ويولد جرساً لفظياً، ويؤثر في المتلقي، ويجد لديه استحساناً، ويعمق الفكرة، ويثبتها في النفس؛ لأن السجع في النثر يقوم مقام الوزن في الشعر، فيثبت الكلام في الذاكرة، ويسهّل حفظه.

وقد عرف عن الخليفة عمر –رضي الله عنه– اعتناؤه بالسجع. وقد نهى النبي –صلى الله عليه وسلم– عن تكلف السجع المحاكي لسجع الكهان في الجاهلية. فقد روي عن عمر –رضي الله عنه– إنكاره السجع على صُحار العبدي حين وصف له بلاد حَران بقوله: (أرض سهلها جبل، وماؤها وشل، وثمرها دقل، وعدوها بطل، وخيرها قليل، وشرّها طويل..) فقال له عمر: أسجّاع أنت أم مخبر؟[١٥]

واعتمد الخليفة على الجمل المتوازية التي تحقق بتوازنها إيقاعاً نغمياً مقبولاً لدى المتلقي (البينة على من ادّعى، واليمين على منْ أنكر)، فقد حقق هذا التقطيع الصوتي إيقاعاً نغمياً للرسالة. وثمة جمل متوازنة ومسجوعة (حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولايخاف ضعيف من جورك)، فصحة التقسيم في الجمل أمر يشير إلى طريقة التفكير المنطقية لدى الخليفة.

أتت جمل الخليفة مسجوعة متوازنة ففواصل السجع متساوية، ويعدُّ هذا أفضل أنواع السجع؛ لأنه قائم على التساوي والتوازن بين الجمل.

ويعد التوازن والسجع شبيهي الوزن في الشعر. فثمة توازن وسجع (راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك، (فريضة محكمة، وسنة متبعة) (يوجب الله عز وجل بها الأجر، ويحسن بها الذخر)، وثمة ازدواج وسجع، والسجع المستجاد لدى الذوق العربي هو السجع القصير، الذي يكون في جمل قصيرة؛ ذلك لأن الفواصل تتقارب، وتقترب من السمع. فالسجع الموجود في الجمل الطويلة قليل القيمة الفنية.

ويعني هذا الكلام أن السجع يخدم المعنى في هذه الحال، ويثبته في النفس، ويبرزه، ويظهره، ولا يقف عائقاً أمام إيصال المعنى.

وقد لوَّن الخليفة في استخدامه السجع، والسجعات متباينة من جهة الطول. (آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك، ولا ييأس ضعيف من عدلك).

لقد خصّ العرب النثر للأمور العقلية أكثر من الشعر؛ لقدرته على استيعاب الأفكار، والتوسع في معالجتها. وإذا ما أراد الخليفة أن يقرر قاعدة توسل إليها بالسرد. أما إذا أراد أن يوجه، ويرشد فقد توسل إلى إرشاده ونصحه بالمواضع الإنشائية. فكان الشخصيةَ المحورية في الرسالة يفسِّر، ويشرح، ويلمِّح، ويتعمق أكثر مما يصف، فظهر لديه اقتصاد لغوي من خلال دقة التعبير بالجمل القصيرة، وعدم الإفراط بالتفاصيل الصغيرة، والنقلات السريعة بين السرد الإخباري والمواضع الإنشائية، والتركيز على ما يرفع من شأن الإنسان، والسعي وراء إصلاح أخلاق الأمة.

جمع الخليفة بين قصر العبارة، وتطويع اللغة؛ لتستوعب أفكاره، فجمع بين الذاتية

والموضوعية. فقد جعله قصر العبارة يبقي من الجملة على ما هو ضروري لإتمام المعنى فقط. هدفه الأساس من الرسالة كلها التأثير في القاضي، وإقناعه معتمداً على أسس منطقية، وحجج مقنعة.

وقد اشْتُرِط في المجادل شروطٌ متعددة؛ ليستطيع أن يظهر الحق والصواب، منها: ألا يغترَّ بقوة عارضته، وصحة تمييزه، وجودة خاطره، وحسن بديهته، وثبات حجته، كأن يثبت الشيء ونقيضه، ويشرع في الاحتجاج له، فإن ذلك يذهب ببهاء علمه...(١٦)

لقد أراد الخليفة الشيء ونقيضه، ليثبت الشيء الذي يريد إثباته، وليقتنع المتلقي بجدوى السير على طريق ذلك الشيء.

خاتمة:

- موضوع الرسالة جديد (القضاء)، وهي تجمع بين الوعظ الديني والفكر الفلسفي:

- من أبرز خصائص الرسالة:

  - الشدة واللين.
  - الوعظ والإرشاد.
  - ثنائية النزعة المثالية والواقعية، وعلاقة التضاد التي نتجت من الاعتراف بمشكلات المجتمع الإسلامي، والطموح إلى إيجاد والمجتمع المثالي.
  - ظهور آثار النزعة العقلية، وأبرزها التضاد، وحسن التقسيم.

- لم نجد صدى للقاضي ، ولا صوتاً له فكأنه أرادها رسالة للقضاة جميعاً لا لشخص القاضي ، وأرادها دستوراً يسيرون عليه.

الهوامش والتعليقات

١ – البقرة، الآية ٧٩

٢ – القلم، الآية ١

٣ – انظر المرزوقي، محمد بن عبد الله (١٢٧٥ ، ص ١٠٢.)

٤ – المقدسي، أنيس (١٩٣٥ ، ج١ / ٩١ وما بعدها.)

٥ – انظر: مبارك ، زكي. النثر الفني في القرن الرابع.

٦ – القلقشندي (١٩١٣ –١٩١٩، ٦/ ٣٢٧)

٧ – أمين، أحمد (١٩٣٢، ص ١٧١)

٨ – الهادي، د. صلاح الدين (١٩٨٧، ص ١٣٧)

٩ – ابن عبد ربه (١٩٨٦، ج١ / ٨٦– ٨٨/)، القلقشندي (١٩١٣–١٩١٩، ٦/ ٣٨٨)

١٠ – آس: ساو.

١١ – عدول: أكفاء من حيث الحقوق والواجبات

١٢ – ظنين: لا ينتسب إلى أهله.

١٣ – الجاحظ(١٩٦٨ ، ١/ ٦٢.)

١٤ – العيد، يمنى (١٩٨٥، ص ١٧٥.)

١٥ – الطبري (١٩٣٩، ٣/ ٢٥٧.)

١٦ – ابن جعفر، قدامة (١٩٦٣، ص ٨٥)

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- أمين ، أحمد. فجر الإسلام، ط٢، القاهرة، ١٩٣٢

٣- الجاحظ، عمر بن بحر. البيان والتبين، تحقيق فوزي عطوي، بيروت، ١٩٦٨

٤-ابن جعفر، قدامة. نقد النثر، ط٢، تحقيق مصطفى كمال، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٣

٥- حسين، د. طه. من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، مصر، ١٩٣٦

٦- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، ١٩٣٩

٧- ابن عبد ربه. العقد الفريد، شرحه ضبطه وصححه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦

٨- العيد، يمنى (د. حكمت صباغ الخطيب). في معرفة النص، ط٣ ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٨٥

٩- القلقشندي. صبح الأعشى، طبعة بولاق، ١٩١٣- ١٩١٩

١٠- مبارك، د. زكي. النثر الفني في القرن الرابع، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣٤

١١- المرزوقي، محمد بن عبد الله . أخبار مكة، طبعة مكة ، ١٢٧٥هـ.

١٢- المقدسي، أنيس. تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، طبعة بيروت ، ١٩٣٥

١٣- الهادي، د. صلاح الدين. الأدب في عصر النبوة والراشدين، ط٣ ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٧.